Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«وبعد. فأنت في يدك قياس لا ينكسر؛ وجواب لا ينقطع، ولك حدٌ لا يُفَلّ، وغرب لا ينثني؛ وهو قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب. أن تقول: وما عليَّ أن يراني الناس عريضاً، وأكون في حكمهم غليظاً، وأنا عند الله طويل جميل، وفي الحقيقة مقدود رشيق، وقد علموا ـ حفظك الله ـ أن لك مع طول البادِ راكباً، طول الظهر جالساً. ولكن بينهم فيك، إذا قمت، اختلاف؛ وعليك اذا اضطجعت مسائل. ومن غريب ما أعطيت، وبديع أوتيت أنا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك. فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب. فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول. بل ما يهمك من أقاويلهم، ويتعاظمك من اختلافهم، والراسخون في العلم، والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وأن ما ذهب منك عرضا استغرق ما ذهب منك طولاً. ولئن اختلفوا في طولك. لقد اتفقوا في عرضك، وإذا سلموا لك بالرغم شطراً، ومنعوك بالظلم شطراً، فقد حصلت ما سلموا لك، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا. ولعمري إن العيون لتخطىء، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، لقد كنت في طولك آية للسابلين، وفي عرضك منارا للضالين. . . ».

ثم تراه يحتج للعرض على الطول بقوله: لولا فضيلة العرض على الطول، لما وصف الله الجنة بقوله: ﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾.

وكما قال الشاعر[1]:

ولا تحسداني بارك الله فيكما من الأرض ذات العرض أن توسعاليا

وكأنما يريد الجاحظ. بذلك أن يلحق به صفة «العرض» محاولاً اقناعه بأنها إحدى صفات الجمال والكمال. . . وبمثل هذا أيضاً يقول:

«ولئن قالوا في الحسن: كأنه طاقة ريحان، وكأنه غصن بان، وكأنه قضيب

(١) مالك بن الريب التميمي